بسم الله الرحمن الرحيم

٣٩ - سورة الزُّمر

سميت بها لاشتمالها على الآية التى ذكر فيها زمر الفريقين ، المشيرة إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المعذرة . وهـذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايمىّ . وهى مكية ، واستثنى بعضهم ثلاث آيات[1] (قُلْ يَـٰعِبَادِىَ) الخ ذهابا إلى أنها نزلت فى وحشىّ قاتل حمزة على ماروى . قيل، ورابعة وهى[2] (ٱللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ) حكاه ابن الجوزىّ، وتقدم الـكلام فى مثل هذا . وآياتها خمس وسبعون .

أخرج النسائىّ[3] عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم .

وكان ﷺ يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٣) أخرجه فى : ٢٢ ـ كتاب الصيام، ٣٤ ـ باب الاختلاف على محمد بن إبراهيم فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)

« تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ » أى هذا تنزيل . أو تنزيله كائن من الله. وقرئ (تَنزِيلَ) بالنصب على إضمار فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ)

« إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ » أى عن شوب الشرك والرياء ، بإمحاض التوحيد وتصفية السر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ، وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ)

« أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ » أى الذى وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة ، لانفراده بالألوهية « وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى بالمحبة ، للتقرب والتوسل بهم إلى الله تعالى « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ » أى يقولون ذلك احتجاجا على ضلالهم « إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى عند حشر معبوداتهم معهم ، فيقرن كلا منهم مع من يقولاه ، من عابد ومعبود . ويدخل المبطل النار

مع المبطلين ، كما يدخل المحق الجنة مع المحقين « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ » لا يوصله إلى النجاة ومقرّ الأبرار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ، سُبْحَٰنَهُۥ ، هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ)

« لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ » أى نزهه عن المماثلة والمجانسة ، واصطفاء الولد . لكون الوحدة لازمة لذاته ، وقهره بوحدانيته لغيره . فلا تماثل فى الوجود ، فكيف فى الوجوب ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ)

[٦] (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ » أى بإذهاب أحدهما وتغشية الآخر مكانه . كأنما ألبسه ولفّ عليه « وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو منتهى دوره ، أو منقطع حركته « أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ * خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا » أى من نفسها ونوعها

« زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَاجٍ » أى ذكراً وأنثى . من الإبل والبقر والضأن والمعز « يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ » أى متقلبين فى أطوار الخلقة « فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ » يعنى البطن والرحم والمشيمة « ذَٰلِكُمُ » أى الخالق لصوركم ، المكوّر أى المصرف بقدرته ، المسخر بسلطانه ، المنشىء للكثرة من نفس واحدة بحكمته ، المنزل للنعم بنعمته « ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » أى عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ، وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

« إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ » أى عن إيمانكم « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ » أى لأنه سبب هلاكهم « وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ » أى وإن تستعملوا ما أنعم به عليكم فيما خلق له ، يقبله منكم ، لأنه دينه . ويثيبكم ثوابا حسنا لطاعتكم .

تنبيه :

فى الإكليل : استدل بقوله تعالى (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ) على أنه تعالى لا يرضى الكفر والمعاصى . وعلى أن الرضا غير الإرادة . وهو أحد قولى أهل السنة . والقول الثانى وحكاه الآمدىّ عن الجمهور ، أن الرضا والإرادة سيان ، وحملوا (العباد) فى الآية على المخلصين .

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تحمل حاملة حمل أخرى ، أى ما عليها من الذنوب ، أو لا تؤخذ نفس بذنب أخرى ، بل كلٌّ مأخوذ بذنبه « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ » أى بعد الموت « فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بما فى القلوب من الخير والشر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ)

[٩] (أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ)

« وَإِذَا مَسَّ » أى أصاب « ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ » أى شدة وبلاء « دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ » أى ابتهل إليه برفع الشدة والبلاء عنه ، مقبلا إليه بالدعاء والتضرع « ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ » أى أعطاه « نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ » أى نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه من قبل النعمة . وقيل : نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه . فـ (ما) بمعنى (من) أقيمت مقامها لقصد الدعاء الوصفىّ ، ولما فى (ما) من الإبهام والتفخيم ، « وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ » أى يصد الناس عن دينه وطاعته « قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ » أى عش به « قَلِيلًا » أى يسيراً فى الدنيا « إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ * أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا » أى متعبداً فى ساعاته يقطعها فى السجود والقيام « يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ » أى عقابها « وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ » أى جنته ورضوانه ، أى : أهذا أفضل أم ذاك الكافر الجاحد الناسى لربه ؟ « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ » أى توحيده وأمره ونهيه فى الثواب والطاعة « وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يستويان .

تنبيهات :

الأول ـ فى الآية استحباب قيام الليل . قال ابن عباس : آناء الليل: جوف الليل. وقال الحسن : ساعاته أوله ووسطه وآخره .

الثانى ـ فى قوله تعالى (يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ) ردّ على من ذمّ العبادة خوفا من النار أو رجاء الجنة . وقال ﷺ[1] (حولها ندندن) .

الثالث ـ فى قوله تعالى (هَلْ يَسْتَوِى) الآية مدح العلم ورفعة قدره . وذمّ الجهل ونقصه. وقد يستدل به على أن الجاهل لا يكافئ العالمة ، كما أنه لا يكافئ بنت العالم، أفاده فى (الإكليل) .

وفى الآية أيضاً إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، إذ عبر عنهم أولا بـ(القانت) ثم نفى المساواة بينه وبين غيره ، ليكون تأكيداً له ، وتصريحاً بأن غير العامل كأن ليس بعالم .

قال القاشانىّ : وإنما كان المطيع هو العالم ، لأن العلم هو الذى رسخ فى القلب وتأصل بعروقه فى النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم، فظهر أثره فى الأعضاء لا ينفك شىء منها عن مقتضاه ، وأما المرتسم فى حيز التخيل، بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه ، فليس بعلم . إنما هو أمر تصورىّ وتخيل عارض لا يلبث ، بل يزول سريعا . لا يغذو القلب ولا يسمن ولا يغنى من جوع « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ » أى يتعظ بهذا الذكر « أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ » أى العقول الصافية عن قشر التخيّل والوهم، لتحققها بالعلم الراسخ الذى يتأثر به الظاهر . وأما المشوبة بالوهم فلا تتذكر ولا تتحقق بهذا العلم ولا تعيه .

---

(١) أخرجه أبو داود فى: ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٢٤ ـ باب فى تخفيف الصلاة، حديث رقم ٧٩٢ ، عن بعض أصحاب النبىّ ﷺ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ » أي للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا ، مثوبة حسنة في الآخرة ، لا يكتنه كنهها « وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ » أي بلاده كثيرة . فمن تعسر عليه التوفر على الإحسان في وطنه ، فليهاجر إلى حيث يتمكن منه. قال الشهاب: وجه إفادة هذا التركيب هذه المعاني الكثيرة، أوضحه شراح الكشاف بأن قوله (للذين أحسنوا) مستأنف لتعليل الأمر بالتقوى ، ولذا قيد بالظرف . لأن الدنيا مزرعة الآخرة، فينبغي أن يلقى في حرثها بذر المثوبات. وعقب بهذه الجملة لئلا يعتذر عن التفريط بعدم مساعدة المكان ، ويتعلل بعدم مفارقة الأوطان ، فكان حثا على اغتنام فرصة الأعمار ، وترك مايعوق من حب الديار ، والهجرة فيما اتسع من الأقطار ، كما قيل :

إذا كان أصلي من تراب فكلها ... بلادي وكلُّ العالَمين أقاربي

انتهى. « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ » أي على مشاقّ الطاعة من احتمال البلاء، ومهاجرة الأوطان لها « أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » أي بغير مكيال . تمثيل للكثرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ)

« قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ » أي عن الالتفات إلى غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

« وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ » أي وأمرت بذلك، لأجل أن أكون مقدمهم

فى الدنيا والآخرة . لأن إخلاصه عليه الصلاة والسلام أتمّ من إخلاص كل مخلص . وعلى هذا ، فالأولية فى الشرف والرتبة . أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من أمته . فالأولية زمانية على ظاهرها . ويجوز أن تجعل اللام مزيدة. كما فى (أردت لأن أفعل) فيكون أمرا بالتقدم فى الإخلاص .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٤] (قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى)

« قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى » أى بترك الإخلاص له « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ » أى أخصه بالعبادة « مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى » عن شوب الغير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ، قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ)

« فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى أهلكوا أنفسهم بالضلال ، وأهليهم بالإضلال . أو خسروا أنفسهم بالهلاك وأهليهم به أيضا ، إن كانوا مثلهم، أو بفقدهم فقداً لا اجتماع بعده، إن كانوا من أهل الجنة « أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ، يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ)

« لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » أى أطباق من النار « ذَٰلِكَ »

أى العذاب المتوعد به « يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ » أى بعدم التعرض لما يوجب السخط . قال الزمخشرىّ : وهذه عظة من الله تعالى ، ونصيحة بالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ، فَبَشِّرْ عِبَادِ)

[١٨] (ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ، أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ)

[١٩] (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ)

« وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا » يعنى الأوثان . و (فعلوت) للمبالغة « وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ » أى بالثواب « فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ » أى إيثارًا للأفضل واهتماما بالأكمل . قال الزمخشرىّ : أراد أن يكونوا نقادا فى الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل . ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك ، وأقواها عند السبر ، وأبينها دليلا وأمارة . وأن لا تكون فى مذهبك كما قال القائل[١] :

* ولا تــكن مِثْلَ عَيْرٍ قِيدَ فَانْقَادَا *

يريد المقلد . انتهى . ويدخل تحته أيضا إيثار الأفضل من كل نوعين ، اعترضا . كالواجب مع الندب . والعفو مع القصاص . والإخفاء مع الإبداء فى الصدقة ، وهكذا « أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ » أى أفأنت تنقذه منها ؟ أى : لا يمكن إنقاذه أصلًا .

(١) صدره كما فى الشواهد : * شَمِّرْ وكن فى أمورِ الدِّينِ مجتهدا *

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ، وَعْدَ ٱللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ)

[٢١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ)

« لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ » أى يتم جفافه « فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا » أى فتاتاً « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لابد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير ، لا عن تعطيل وإهمال . ويجوز أن يكون مثلا للدنيا كقوله تعالى[1] (إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) [2](وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) أفاده الزمخشرىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ، أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ)

« أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ » أى وسعه لتسليم الوجه إليه وحده، ولقبول دينه وشرعه بلطفه وعنايته وإمداده سبحانه « فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ » أى على بينة ومعرفة،

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] . (٢) [١٨ / الكهف / ٤٥] .

واهتداء إلى الحق . واستعارةُ النور للهدى والعرفان ، شهيرة ، كاستعارة الظلمة لضد ذلك . وخبر (من) محذوف دلّ عليه قوله تعالى « فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ » أى من قبول ذكره لشدة ميلها إلى اللذات البدنية ، وإعراضها عن الكمالات القدسية. أو من أجل ذكره . ف(من) للتعليل والسببية . وفيها معنى الابتداء لنشئها عنه. قال الشهاب : إذا (قيل قسا منه) فالمراد أنه سبب لقسوةٍ نشأت منه . وإذا قيل (قسا عنه) فالمعنى أن قسوته جعلته متباعدا عن قبوله. وبهما ورد استعماله . وقد قرئ ب(عن) فى الشواذ. لكن الأول أبلغ . لأن قسوة القلب تقتضى عدم ذكر الله. وهو معناه إذا تعدى ب (عن) . وذكره تعالى مما يلين القلوب ، فكونه سبباً للقسوة ، يدل على شدة الكفر الذى جعل سبب الرقة ، سبباً لقسوته « أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى عن طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ)

« ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا » أى يشبه بعضه بعضا ، فى الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ووجوه الإعجاز « مَّثَانِىَ » جمع (مُثَنًّى) بمعنى مردّد ومكرر ، لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » تمثيل لإفراط خشيتهم . أو حقيقة لتأثرهم عند سماع آياته وحكمه ووعيده ، بما يردعلى قلوبهم منها « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ » أى بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره « ذَٰلِكَ » أى الكتاب، أوالكائن من الخشية والرجاء «هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ» أى من زاغ قلبه « فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ)

« أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ » أى فمن يجعل وجهه وقاية لشدة العذاب ذلك اليوم ، أى قائما مقامها فى أنه أول مايمسه المؤلم له . لأن مايتقى به هو اليدان ، وهما مغلولتان . ولو لم تغلا كان يدفع بهما عن الوجه ، لأنه أعز أعضائه . وقيل : الاتقاء بالوجه كناية عن عدم مايتقى به ، لأن الوجه لايتقى به . وخبر (من) محذوف كنظائره . أى : كمن أمن العذاب « وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ » أى : وباله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لايحتسبون أن الشر يأتيهم منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى الذل والصغار « وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى بيّنا لهم فى هذا القرآن ، الذى هو دليل فى نفسه من إعجازه ، من كل مثل يحتاج إليه .

من يستدل بنظره على حقيته وأحقيته « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى به مايهمهم من أمور دينهم ، وما يصلحهم من شؤون سعادتهم ، فيفسروا المعقول بالمحسوس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ » أى مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف « لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى العذاب والخزى يوم الجزاء ، بالاتقاء من الأفعال القبيحة والأخلاق الرديئة ، والاعتقادات الفاسدة . ومن أجلّ تلك الأمثال ، ما مثل به ليتقى من أعظم المخوفات ، وهو الشرك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا » أى للمشرك والموحد رجلين مملوكين « رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ » أى سيئو الأخلاق ، يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهماتهم المختلفة ، لايزال متحيراً متوزع القلب ، لايدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجته « وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ » أى : خلص ملكه له ، لايتجه إلا إلى جهته . ولا يسير إلا لخدمته ، فهمّه واحد ، وقلبه مجتمع « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » أى : صفة وحالًا . أى فى حسن الحال وراحة البال ؟ كلا . وهكذا حال من يثبت آلهة شتى . لايزال متحيراً خائفاً لايدرى أيهم يعبد ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد . وحال من لم يعبد إلا إلهاً واحدا . فهمّه واحد . ومقصده واحد . ناعم البال . خافض العيش والحال . والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة ودرء الفرقة . كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام[1] (ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ

(١) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

ٱلْقَهَّارُ) « ٱلْحَمْدُ لِلَّـهِ » قال أبو السعود : تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى. وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته . أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل ، أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء، صنع جميل ولطف تام منه عز وجل ، مستوجب لحمده وعبادته. وقوله تعالى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره . فيبقون فى ورطة الشرك والضلال . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » تمهيدلما يعقبه من الاختصام يوم القيامة . وقرئ (مائت ومائتون) وقيل : كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته . أى إنكم جميعاً بصدد الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

« ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ » أى مالك أموركم « تَخْتَصِمُونَ » أى فتحتج أنت عليهم بأنك بلّغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها ما فى تضاعيف هذه الآيات . واجتهدت فى الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد ، وهم قد لجّوا فى المكابرة والعناد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ، أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ » أى افترى عليه بنسبة الشريك والولد « وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ » أى بالأمر الذى هو عين الحق « إِذْ جَآءَهُۥ » أى حضر عنده دليله وبرهانه ، فرفضه ورده على قائله . أى لا أحد من المتخاصمين أظلم ممن حاله ذلك . لأنه أظلم من كل ظالم « أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ » أى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه ، وسارعوا إلى التكذيب بالحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ)

« وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ » أى جاء بدليل التوحيد وآمن به فلم يعتد بشبهة تقابله ، يعنى النبىّ ﷺ ومن تبعه « أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ » أى الموصوفون بالتقوى التى هى أجل الرغائب . ولذا كان جزاؤهم أن يقيهم الله ما يكرهون ، كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ)

[٣٥] (لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

[٣٦] (أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ)

[٣٧] (وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ، أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ)

« لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا أعمالهم وأصلحوها « لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى

كَانُواْ يَعْمَلُونَ* أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ » أى نبيّه ﷺ أن يعصمه من كل سوء، ويدفع عنه كل بلاء فى مواطن الخوف « وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ » يعنى الأوثان التى عبدوها من دونه تعالى . وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، ويصيبك مضرتها لعيبك إياها. كما قال قوم هود[1] (إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ) « وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ » أى من غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام، وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلًا « فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ* وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ » أى يصرفه عن مقصده ، أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه . إذ لا راد لفضله ولا معقب لحكمه « أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ » أى ينتقم من أعدائه لأوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ، قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ » لما تقرر فى الفطر والعقول من استيقان ذلك ، ولوضوح الدليل عليه « قُلْ » أى تبكيتا لهم « أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ » أى نفعه وخيره . كلا . فإنها لا تضر ولا تنفع « قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ » أى فى جميع أمورهم ، لا على غيره . لعلمهم بأن كل ماسواه تحت قهره .

(١) [١١ / هود / ٥٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٤٠] (مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)

« قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالتكم التى أنتم عليها ، من العداوة ومناصبة الحق « إِنِّى عَـٰمِلٌ » أى على مكانتى . فحذف للاختصار ، والمبالغة فى الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة ، بنصر الله عز وجل وتأييده . ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم فى الدارين ، بقوله تعالى « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » أى دائم . وقد أخزاهم الله يوم بدر[1] (وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ، فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ)

« إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ » أى لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه وافتقارهم إلى بيان مراشدهم « فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ » أى بدلائله « فَلِنَفْسِهِۦ ومَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ » أى لتجبرهم على الهدى . إذ ما عليك إلا البلاغ[2] (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(١) [٢٠ / طه / ١٢٧] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٤] .

« اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » أى مفارقتها لأبدانها ، بإبطال تصرفها فيها بالكلية « وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » أى ويتوفى التى لم يحن موتها فى منامها ، بإبطال تصرفها بالحواس الظاهرة « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ » أى فلا يردها إلى بدنها إلى يوم القيامة « وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى وهو نوم آخر أو موت « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من التوفى على الوجهين « لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى كيفية تعلقها بالأبدان، وتوفيها عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ، قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)

[٤٤] (قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ، لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٤٥] (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

« أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا » أى هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعةً ما، إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذونا له ، وكلاهما مفقود ههنا « لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ » أى دون آلهتهم « اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ » أى فرادى، أو مع ذكر الله تعالى « إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى يفرحون بذلك . لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق الله تعالى. ولقد بولغ فى الأمرين حيث بيّن الغاية فيهما. فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه . والاشمئزاز أن يمتلىء غما حتى ينقبض أديم وجهه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى التجىء إلى الله بالدعاء بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بينى وبينهم . والمقصود بيان حالهم ووعيدهم وتسلية حبيبه الأكرم . وأن جدّه وسعيه معلوم مشكور عنده تعالى. وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى، والدعاء بأسمائه الحسنى ، والاستعانة بالتضرّع والابتهال على دفع كيد العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ)

[٤٨] (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

«وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ* وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى نزل بهم جزاؤه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ، بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٠] (قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ)

« فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » أى منى بوجوه الكسب والتحصيل « بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ » أى ابتلاء له ، أيشكر تلك النعمة، فيصرفها فيما خلقت له ، فيسعد . أو يكفرها فيشقى « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى كما قال قارون[1] (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي) « فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى فما دفع عنهم ما كسبوه بذلك العلم من متاع الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ)

[٥٢] (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى بأن الكل منه سبحانه ، ومن آياته فى ذلك ـ كما قال المهايمىّ ـ أنه تعالى قوىّ بذاته ، له تقوية من يشاء وتضعيف من يشاء . ومنها أنه فيّاض بذاته لا يتوقف فيضه على الشفعاء . ومنها أنه فاعل بذاته لا يتوقف فعله على سبب وواسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(١) [٢٨ / القصص / ٧٨] .

[٥٤] (وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

[٥٥] (وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

[٥٦] (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ)

« قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ » أى جَنَوْا عليها بالإسراف فى المعاصى والكفر « لَا تَقْنَطُواْ » قرئ بفتح النون وكسرها « مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ » أى لا تيأسوا من مغفرته بفعل سبب يمحو أثر الإسراف « إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا » أى لمن تاب وآمن . فإن الإسلام يجبّ ما قبله « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ » أى توبوا إليه « وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ » أى استسلموا وانقادوا له . وذلك بعبادته وحده وطاعته وحده ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه « مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ » أى قصرت « فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ » أى فى جانب أمره ونهيه ، إذ لم أتبع أحسن ما أنزل « وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ » أى المستهزئين بمن يتبع الأحسن . و (أَن تَقُولَ) مفعول له بتقدير مضاف . أى : فتداركوا كراهة أن تقول . أو تعليل لفعل يدل عليه ما قبله . أى أنذركم وآمركم باتباع أحسن القول كراهة . وتفصيله فى شروح (الكشاف) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ)

« أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى » أى للإسلام « لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ » أى : من هذا الكفر . أى تقول هذا النوع من التحسر والتململ بما لا يجدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً » أى رجعة إلى الدنيا « فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى فى الإيمان والعمل الصالح . ثم ردّ تعالى على تلك النفس بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ)

[٦٠] (وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)

« بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ » أى بنسبة ما يستحيل عليه من الولد والشريك ، وتجويز ما يمتنع عليه من رضاه بما هم عليه ، وأمره لهم ، وغير ذلك من إفكهم « وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » أى لما ينالهم من الشدة التى تغير ألوانهم . فالسواد حقيقىّ . أو لما يلحقهم من الكآبة ، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية ورسوخ الرذائل النفسانية فى ذواتهم . فالسواد مجاز بالاستعارة « أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » أى عن الإيمان والهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٢] (ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ)

« وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ » أى بفوزهم وفلاحهم لإتيانهم بأسباب الفوز ، من الاعتقادات المبنية على الدلائل والأعمال الصالحة « لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ » أى يتولى التصرف فيه كيف شاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ)

[٦٤] (قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ)

[٦٥] (وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ)

[٦٦] (بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)

« لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى هو وحده يملك أمرها وخزائن غيوبها وأبواب خيرها وبركتها « وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ * قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ » أى خصه بالعبادة « وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ » أى الصارفين ما أنعم به عليهم ، إلى ما خلق لأجله .

فإن قيل : كان الظاهر (لو أشركت) لأن (أن) تقتضى احتمال الوقوع . وهو هنا

مقطوع بعدمه . فالجواب : أن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها لأغراض . والمراد به تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية قبح الإشراك ، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره ، فكيف بمن عداه ؟ وإطلاق الإحباط هنا يستدل به من ذهب إلى أن الردة مبطلة للعمل مطلقا، كالحنفية . وغيرهم يرى الإحباط مقيدا بالاستمرار عليه إلى الموت ، وأنه هو المحبط فى الحقيقة . وأنه إنما ترك التقييد به اعتمادا على التصريح به فى آية أخرى ، وهى قوله تعالى[1] (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ، سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى ماقدروا عظمته تعالى حق عظمته، ولا عرفوا جلاله حق معرفته . حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة. مع أن عظمته وكمال قدرته تتحير فيها الأوهام. فإن تبديل الأرض غير الأرض، وطىّ السموات كطى السجل ، أهون شىء عليه . وفى (القبضة واليمين) مذهبان معروفان. مذهب السلف، وهو إثبات ذلك من غير تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الكريم عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل . يجرون على الظاهر ويكلون علمه إليه تعالى ويقرون بأن تأويله (أى ما يؤول إليه من حقيقته) لا يعلمه إلا الله . وهكذا قولهم فى جميع الصفات التى نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٧] .

المذهب الثانى ـ القول بأن ذلك من المجاز المعروف نظيره فى كلام العرب. وإن الإطلاق لاينحصر فى الحقيقة . ثم من ذاهب إلى أن المجاز فى المفردات، استعيرت (القبضة) للملك أو التصرف و(اليمين) للقدرة . وذاهب إلى أنه فى المركب ، بتمثيل حال عظمته ونفاذ قدرته ، بحال من يكون له قبضة فيها الأرض ، ويمين بها تطوى السموات . وهذا ما عول عليه الزمخشرىّ وبسطه أحسن بسط .

ثم أشار إلى أن من عظيم قدرته تعالى، أنه جعل النفخ فى الصور سبب موت الكل تارة، وحياتهم أخرى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ)

« وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ » أى هلك « مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ » أى من خواص الملائكة. أو من الشهداء. روى ذلك عن بعض التابعين. وقال قتادة : قد استثنى الله ، والله أعلم ، إلى ما صارت ثُنْيَتُهُ . وهذا هو الوجه . إذ لا يصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ» أى وقوف ، يقلّبون أبصارهم دهشا وحيرة . أو ينتظرون ما يحل بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » أى لأنه يتجلّى لهم سبحانه لإقامة العدل والجزاء « وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ » أى عرض كتب الأعمال على أهلها ليقرأ كل واحد عمله فى صحيفته.

أو (ٱلْكِتَٰبُ) مجاز عن الحساب وما يترتب عليه من الجزاء ، ووضعه ترشيح له . والمراد بوضعه الشروع فيه. أو هو تمثيل. وجوه نقلها الشهاب «وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ» أى الذين يشهدون للأمم وعليهم ، من الحفظة والأخيار المطلعين على أحوالهم. أى أحضروا للشهادة لهم أو عليهم لاطّلاعهم على أحوالهم . وجوّز إرادة المستشهدين فى سبيل الله تعالى، تنويهاً بشأنهم ، وترفيعاً لقدرهم ، بضمهم إلى النبيين فى الموقف . ولا يبعد « وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فتوزن أعمالهم بميزان العدل ، ويوفّون جزاء أعمالهم ، لاينقص منها شىء ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

[٧١] (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ)

[٧٢] (قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ)

[٧٣] (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ)

« وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا » أى أفواجا متفرقة بعضها فى أثر بعض، على تفاوت ضلالهم وغيهم، رعاية للعدل فى التقديم والتأخير «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا» أى ليدخلوها، ولكل فريق باب

« وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ » أى الموكلون بتعذيبهم «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ» أى من جنسكم تعرفون صدقهم وأمانتهم « يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا» أى وقتكم أو يوم القيامة ، حرصاً على صلاحكم وهدايتكم « قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ » أى وجبت « كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » أى حكمه عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار « قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ *وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ » أى مساق إعزاز وتشريف ، للإسراع بهم إلى دار الكرامة « زُمَرًا » أى متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ» أى من دنس المعاصى، وطهرتم من خبث الخطايا « فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ » قال السمين : فى جواب (إِذَا) ثلاثة أوجه: أحدها ـ قوله (وَفُتِحَتْ) والواو زائدة . وهو رأى الكوفيين والأخفش . وإنما جىء هنا بالواو دون التى قبلها ، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، ثم تغلق عليه . فناسب ذلك عدم الواو فيها . بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها . والثانى ـ أن الجواب قوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) على زيادة الواو أيضا. الثالث ـ أن الجواب محذوف. قال الزمخشرى : وحقه أن يقدر بعد خالدين : أى لأنه يجئ بعد متعلقات الشرط ماعطف عليه . والتقدير : اطمأنوا . وقدره المبرد : سعدوا . وعلى هذين الوجهين ، فتكون الجملة من قوله (وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا) فى محل نصب على الحال ، والواو واو الحال . أى جاءوها مفتحة أبوابها. كما صرح بمفتحة حالا من (جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ) وهو قول المبرد والفارسىّ وجماعة . وزعم بعضهم أن هذه الواو تسمى واو الثمانية. لأن أبواب الجنة ثمانية . وردّه فى (المغنى) بأنه لو كان لواو الثمانية حقيقة ، لم تكن الآية منها . إذ ليس فيها ذكر عدد البتة ، وإنما فيها ذكر الأبواب. وهى جمع لايدل على عدد خاص . ثم الواو ليست داخلة عليه ، بل على جملة هو فيها . انتهى .

أى وهى ـ على قول مثبتها ـ الداخلة على لفظ الثمانية على سرد العدد. ذهابا إلى أن بعض

العرب إذا عدّوا قالوا : ستة سبعة وثمانية . إيذانا بأن السبعة عدد تامّ ، وأن ما بعده عدد مستأنف ، فأشبهت واو الاستئناف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ)

[٧٥] (وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ » أى بإيصالنا إلى ما وعدنا وأنبأنا عنه على ألسنة رسله « وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ » أى أرض الآخرة . شبه نيلهم بأعمالهم لها ، بإرثهم من آبائهم . فكأن الأعمال آباؤهم . كما قيل : * وأبى الإسلامُ لا أَبَ لِى سِوَاهُ * وكما يقال (الصدق يورث النجاة) « نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ » أى يتبوأ كل من جنته الواسعة ، أىّ مكان أراده « فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ » أى الذين عملوا بما علموا « وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ » أى الملائكة السماوية حافين فى جنة الفردوس حول عرش الرحمن ، محدقين به . وتقدم فى تفسير آية[1] (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) فى الأعراف ، كلام فى حملة العرش ، فتذكره « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم » أى بين الخلائق « بِٱلْحَقِّ » أى بالعدل « وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى على ماقضى بينهم بالحق ، وأنزل كلا منزلته التى هى حقه . والقائل : إما الحق جل جلاله ، أو الملائكة الحافون ، أو المؤمنون ممن قضى بينهم ، أو الكل ، فله الحمد عز وجل .

عن قتادة قال : افتتح الله أول الخلق بـ (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ) فقال (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ) وختم بالحمد فقال (وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] .